الليل والعمامة ...

بقلم الدكتور سهيل ادريس

تلك الليلة ، حاول كثيرا ان يخنق دمعته . ولكن عبثا ما حاول . ان صور امه وابيه واخوته لا تفارق خياله ، بالرغم من انه لم يغادرهم الا منذ الصباح . ولكن هذه كانت الليلة الاولى التي يبيت فيها خارج منزلهم . وهو غريب على هذه الجدران التي تحيط به ، غريب على هذين الرفيقين اللذين يبدو انهما استسلما للنوم منذ ساعة ، كأنهما يصادقان هذه الغرفة منذ سنوات .

انه يحدق في الليل ، فتراود حلقه غصة . سيبقى خمسة ايام اخرى قبل ان يراهم . سيرافق هذه الوحدة بعد الآن ستة ايام في الاسبوع . انه منذ هذه الليلة طالب داخلي في هذه المدرسة الدينية . ألم يختر هو نفسه هذا المصير ؟

لقد حاولت امه ان تثنيه ، وقالت له ان ذلك سيكون قاسيا عليه ، وانه قد لا يحتمل الحياة الدينية ، وهو بعد في تلك السن . وحين قالت لابيه :

ـ ألا ترى انه لا يزال صغيرا ؟

أجاب أبوه :

ـ هذا افضل .. ثم انه لا حيلة لنا بالامر .. لقد قدر الله عليه ، وكتب على جبينه ان يكون شيخا .. مثل أبيه .

وصمت لحظة ثم أردف :

ـ وهذا لا شك فخر له .. أليس كذلك يا سامي ؟

والتفت اليه يسأله بعينيه ، فأجاب من غير تردد :

ـ بلى يا ابي .. انني اريد ان اصبح شيخا ..

فأشرق وجه ابيه ، ثم شده الى صدره وقال له :

ـ الله يرضى عليك يا سامي .. ألا تعرف القول المأثور: « العمامة تاج العرب » ؟

فهز برأسه ، ثم اغمض عينيه واخذته نشوة . سوف يحصل هو ايضا على هذا التاج . سوف يعتمر به .

وها هو الآن هنا ، في هذه الغرفة المظلمة التي سيخرج منها شيخا .

وشعر بأنه لم ينم الا وقتا قصيرا تلك الليلة، حين استيقظ على صوت جرس كهربائي اخذته منه الدهشة ، ثم ذكر اين هو ، فقفز من سريره . انه الجرس الذي يدعو الطلاب الى الاستعداد لصلاة الفجر . وما لبث صوت الناظر ان ارتفع من القاعة الكبرى :

ـ الصلاة .. الصلاة !

اذن ، فلا بد له من ان ينهض كل يوم في مثل هذه الساعة المبكرة ، فيقصد المغاسل ويتوضأ في الليل البارد ، ثم يتجه الى قاعة المسجد المتصلة بمبنى النوم ليؤدي صلاة الفجر .

وارتفع في تلك اللحظة صوت رقيق هادىء يهتف في الليل الاصم : « سبحان فالق الاصباح » فسرت رعشة في جسمه . لقد ذكر صوت ابيه حين كان يرتفع عند الفجر بهذا الهتاف في القرية التي كانوا يصطافون فيها ، فيفتح عينيه ، مصمما على ان يتابع الاذان حتى نهايته ، وان يقاوم النوم ، الى ان يبلغ ابوه في اذانه : « الصلاة خير من النوم » فيغمض عينيه سعيدا راضيا .

اما الآن ، فلا بد من الوضوء والصلاة ، ولن يكون من اليسير ان يعود الى النوم . وخرج من الغرفة مع رفيقيه ، فالتقوا في الممر كثيرا من رفاقهم يتمطون ويتثاءبون . وان هي الا لحظة حتى فاجأهم ذلك الشيخ الكبير الجليل الذي افتتح الدروس في اليوم السابق . وتهامسوا ، على خشية : انه رئيس المعهد . وتساءل هو : ولكن كيف نبع هناك ؟ واين كان ؟ أتراه قد بات ليلته في المعهد ، ام انه قادم لساعته من منزله ؟

وهدر صوت في الممر فجأة : « اسرعوا الى المسجد ! لماذا انتم مبطئون في سيركم ؟ ألا تزالون نائمين؟ استيقظوا ! اسرعوا ! » وتدافعت الاجسام الوسنى بالمناكب . وأيقظ الماء البارد في المغاسل من لم يوقظه صوت الرئيس الهادر .

وبعد الصلاة ، وقف الرئيس يوصيهم بارتداء ملابسهم والهبوط الى قاعات الدرس ليبدأوا حفظ القرآن ، « فان ساعات الصباح الاولى هي خير وقت لاستظهار الآيات وحفظ الاحاديث » . ورجعوا الى غرفهم لينفذوا توصية الرئيس آليا .

وعلى مقعد الدرس ، بدأ يقرأ القرآن بصوت خافت ، ولكن لم تمض عليه دقائق حتى تنبه الى ان القاعة قد امتلأت بهدير اصم اشبه ما يكون بهدير النحل . وصمت لحظة يتسمع ، فأخذ ذلك الهدير الخفي يرتفع رويدا رويدا، لا يبين منه حرف واحد . وأدار نظره في رفاقه ، فاذا هم غارقون في تجربة الحفظ ، وكان بعضهم قد سمع ذلك الهدير ، فوضع اصابعه في اذنيه حتى لا يسمع الآخرين . وكانت تأخذ أجسامهم جميعا هزة يسيرة ، فيتمايل بعضهم ذات اليمين وذات اليسار ، ويتمايل بعضهم الآخر الى امام والى خلف ..

والتفت الى يمينه ، فاذا زميله مغمض عينيه لا تتحرك شفتاه ولا يميل جسمه ، فعلم انه لم يستطع ان يقاوم رغبة النوم . على انه رآه يفتح عينيه ذات لحظة مذعورا ، حتى اذا أجال عينيه دقيقة فيمن حوله ، ابتسم ، فأحب على شفتيه هذه الابتسامة وبادله اياها . ومنذ تلك اللحظة نسجت خيوط صداقة عميقة بينه وبين « رفيق » .

ولقد ألفى نفسه يقبل على طعام الفطور ذلك الصباح اقبالا عظيما ، بالرغم من ان الطعام لم يكن ليزيد عن فنجان من الشاي وبضع حبات من الزيتون لا تتجاوز العشر ، وقليل من دبس العنب . أين هذا من طعام بيتهم الغني اللذيذ ؟ ومع ذلك، فأية نكهة هنا لجرعة الشاي وحبة الزيتون ولقمة الدبس !

وأقبل بلهفة على الاستماع الى اساتذته يدرسونه مواد الدين على اختلافها ، من الفقه والحديث والتوحيد والسيرة، ومواد الادب والعلوم ، واللغة الفرنسية . ولكنه سرعان ما لاحظ ان تدريس هذه اللغة الاجنبية كان بمعدل ساعتين في الاسبوع فقط ، فصمم على ان ينصرف الى المطالعة في الكتب الفرنسية ولو كان ذلك سيكلفه الجهد الشاق .

وبدأ ينغمر سريعا في جو ذلك المعهد . كان يشعر فيه بالوحشة ، ولكنه كان يشعر كذلك بالجدة ، فيفتح عينين فضوليتين واذنين مرهفتين . ولقد احس احساسا اخذ يتوضح شيئا فشيئا بأن عليه ان يعتمد على نفسه منذ الآن، فانه لم يكن هناك من يعنى بشؤونه ، ويرتب حوائجه ويضع له خطة مسلكه . وكان يشعر برضى غامض عن نفسه كلما أتى عملا جديدا لم يكن له به سابق عهد .

وفي تلك الايام الاولى لم يشعر بثقل الوقت الا في تلك الفترة التي تفصل نهاية الدروس عن موعد العشاء . فقد كان يخرج الى حديقة المعهد ، يراقب هبوط الليل ، فيحس بعض كآبة ويحن الى اخوته ورفاقه في الحي .

ولقد اقبل ابوه يزوره بعد ثلاثة ايام ، فضمه اليه بحرارة ، وقبله اكثر من مرة . وقد عجب هو قليلا ان يقول له ابوه بلهجة فيها رقة وضعف لم يعهدهما فيه :

ـ لقد اشتقنا اليك يا سامي .. وليتك ترى امك .. انها لا تذكرك الا وتدمع عيناها ..

ودمعت هو عيناه ، وهم ان يبكي ، ولكنه تمالك دمعه وأجاب أباه :

ـ وانا ايضا مشتاق اليكم كثيرا يا ابي .. وقد فكرت في الليلة الاولى ان اهرب من المعهد لاراكم .. كيف حال وسيم ؟

ثم أضاف بسرعة ، من غير ان ينتظر جوابا :

ـ ولكني مسرور هنا يا أبي .. انني مسرور .

وراح يروي له حياة هذه الايام الثلاثة الاولى والجذل باد في عينيه . وقد قرأ في نظر ابيه الاعجاب والاهتمام ، وذكر له ان الناظر يعنى به عناية خاصة ويعطف عليه ويحثه على الاجتهاد ، وانه دعاه مرة الى اطلاق أذان الفجر ، بعد ان سمع صوته فأرضاه ، وانه تذكره وكاد يبكي حين بدأ ذلك الاذان هاتفا : « سبحان فالق الاصباح ! » فاذا ابوه ترتعش شفتاه من التأثر ، ويضمه اليه ضما عنيفا وهو يقول له :

ـ ان املي بك عظيم يا سامي .. حرسك الله ورضي عنك !

ثم اذا به فجأة يضحك وهو ينظر الى صرة كانت في يده فيقول :

ـ كدت أنساها وأعود بها الى البيت .. انها لك يا سامي ..

ثم انحنى فوق اذنه وهمس له :

ـ تأكل منها اذا جعت ، واذا لم يكفك الطعام !

وهم ان يرد عليه بأن ما يقدم اليه من طعام يكفيه ، ولكنه خشي ان يعود ابوه بالصرة ، فعدل . وأخذ الصرة مستعجلا ذهاب ابيه لينصرف الى فضها .

ولكن ما كاد ابوه يتجاوز درج المعهد ، حتى لحق به سريعا واستوقفه يسأله :

ـ انك لم تقل لي متى سيلبسوننا العمة والجبة ؟

فابتسم ابوه واجابه :

ـ لقد سألت الناظر في ذلك ساعة وصولي ، فأعلمني ان الخياط السوري الذي سيفصل الجبب قادم بعد غد الى المعهد .. ولكنهم يفكرون في انك انت ..

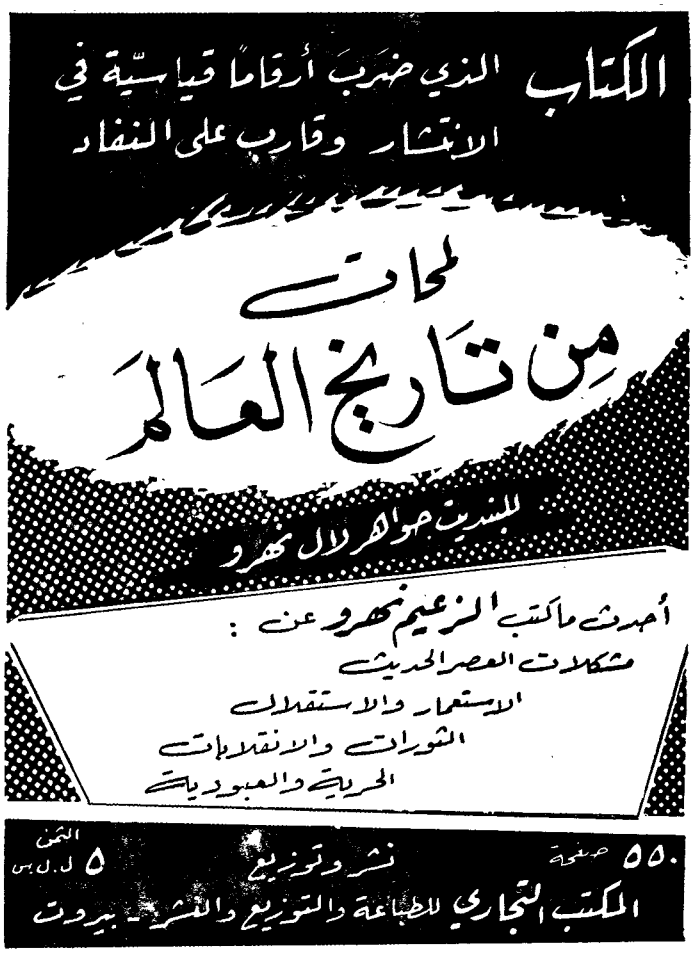

ورأى أباه يكف عن اتمام عبارته ، فداخله من ذلك خوف غامض ، وألح على أبيه بأن يقول ما يخفيه ، فاستطرد يقول:

ـ انهم يرون انك ما زلت .. صغيرا ، ويفكرون في تأجيل الباسك الزي الديني الى السنة القادمة او التي تليها ...

وشعر بأن بوده ان ينفجر بالبكاء ، واذا وجهه قد احتقن بالدم ، واذا هو يتعلق فجأة بيد ابيه ليقول له وهو يجالد نفسه :

ـ اذا كان الامر كذلك .. فاني لن ابقى في هذا المعهد يوما واحدا .. اريد ان البس الجبة والعمة مع رفاقي .

وعجب هو نفسه من اين جاءه هذا التصميم في العزم . ولكنه رأى اباه يبتسم ثانية ويربت على ظهره وهو يقول له:

ـ لقد تحدثت طويلا مع الناظر في هذا الامر ، ونجحت في اقناعه .. فاطمئن يا سامي ...

واقبل من جديد على ابيه يقبل يده مرة ومرة ، ثم احس بثقل الصرة في يده ، فانصرف عنه راكضا الى غرفته ، واخذ يأكل مما كان فيها من حلوى وفاكهة ، ناسيا ان موعد العشاء كان بعد دقائق ..

وحين أراح رأسه على الوسادة تلك الليلة ، ابتسم وهو يذكر قول ابيه المأثور : « العمامة تاج العرب » !

*

انهم لا يعون شيئا مما يلقى عليهم من دروس . وهو على يقين من ذلك . فانه هو نفسه لم يكن يفهم شيئا مما يقوله هؤلاء المعلمون الذين يتدفقون في الحديث كالسيل . كان رفاقه جميعا معلقي السمع بباب المعهد الخارجي يترقبون ان يفتح ، ويطل منه ذلك الرجل الغامض الذي ينتظرونه منذ ثلاثة اسابيع : الخياط .

لقد وعدهم حين كان يقيس اجسامهم ، ان يعود بالجبب بعد اسبوعين اثنين . ولكنه لم يتصل بالمعهد الا امس ، ليعلن انه قادم اليوم ، وليعتذر عن التأخر . لقد خيل اليهم انه لن يأتي ابدا ، كأن دمشق في اقصى الارض . ولماذا تراهم اختاروا خياطا من دمشق ؟ لقد سأل احدهم الناظر، فأجاب بأن ذلك الخياط متخصص في تفصيل الجبب ..

وقد كانوا يتناولون طعام الفطور ذلك الصباح ، حين اعلن الناظر النبأ ، ففغرت الافواه لحظة ، ثم اسرعت تزدرد الطعام ... واحس هو بخفق صدره ، لقد دنت تلك اللحظة التي كان يحلم بها حلما غامضا خيل اليه ساعة انه لن يتحقق . وشعر بوجيب صدره يبلغ حلقه ، ممزوجا بفرحة خفية يحاول جاهدا الا يدعها تبرز على قسماته .

وانتصف النهار دون ان يحدث شيء . وكانوا يحسون في قاعة الدرس ، خلف هذا الباب المغلق ، بأنهم يكادون يكونون في سجن .

وقد بانت في عيونهم الخيبة ، حين دعوا الى صلاة الظهر، ثم الى تناول طعام الغداء، فمشوا الى المسجد والمطعم بخطى متباطئة ، يلتزمون صمتا احس هو بمرارة طعمه في فمه.

ولكنهم حين عادوا الى الصفوف ، فوجئوا به ، هو الخياط ، منتصبا في وسط القاعة الكبرى يبتسم ، وحوله ثلاث محافظ جلدية كبيرة ما تزال مقفلة . واضطربت صفوفهم ، وشملتهم حيرة وارتباك ، حتى اقبل الناظر ، فأمر ان يلزم كل منهم موقفه ، فاذا ناداه الخياط برقمه تقدم منه ليرتدي الجبة ، ثم تحول الى شيخ كان يدرسهم التفسير ، فقدم له طربوشه ليسترده بعد دقائق عمامة .

وقال هو في نفسه :« لا بد ان شيخنا الاستاذ مختص بلف العمائم اختصاص الخياط السوري بتفصيل الجبب!»

وفي الواقع ، كان الشيخ يتناول قطعة من « الشاش » الابيض بطول ذراعين تقريبا ، وعرض نصف ذراع ،فيجمعها عرضا في يده بحيث يكون طرفها الاعلى اسمك من طرفها الاسفل،ويأخذ بلفها على الطربوش الذي يكون قد وضعه على ركبته ، ويديرها عدة دورات ، حتى تشكل عمامة على شكل مخروط .

وقد مر سبعة أو ثمانية من زملائه امام الخياط ، فكان يلبسهم جببهم بالارقام ويشد ذيلها واطرافها لتتهدل ، ثم يقول لكل منهم « مبروك يا مولانا »! فيتجه الزميل الى الشيخ المدرس يلف له العمامة ثم يبتعد قليلا ويغمض عينيه نصف اغماضه لينظر الى صنيعه نظرة الفنان الى اثره ، ثم يبتسم ويقول :« رائع .. ممتاز ..» ويلتفت الى الخياط ليقول له « غَيِّرْه » فيتقدم زميل آخر ..

ولقد مر صديقه رفيق بالخياط والمدرس ، فاذا هو شيخ انيق تبدو المهابة على وجهه ، وقد خيل اليه أنه ازداد طولا ورشاقة .

وفجأة سمع رقمه ، فتقدم بخطى ثقيلة نحو الخياط الذي وجد له جبته بسرعة ، فالبسه اياها ولكنه لم يقل له كما قال للذين سبقوه « مبروك يا مولانا » بل قال له « اسم الله عليك » فابتسم له بسذاجة وتقدم من مدرس التفسير وبسط له طربوشه ، فأخذ يلف عليه العمامة . ولكنه لم يكد يفرغ من لفها ، حتى انفرطت بين يديه ، فتأفف قليلا ، وعاد الى ادارتها على الطربوش من جديد . غير انها ما لبثت ان انفرطت مرةاخرى لسبب لم يفهمهو ولم يفهمه المدرس الذي التفت اليه وقال له بهدوء :

ـ انت منحوس .. ستكون شيخا منحوسا !

وشعر بها اخيرا تستقر على رأسه ، فاحس بثقلها . ولكنه التفت الى رفاقه خلفه يستطلع تأثير ذلك عليهم ، فوجد خمسة او ستة منهم قد وضعوا ايديهم على افواههم يخفون بها بسمة او ضحكة . واخذ يسائل نفسه : « لماذا عساهم ينظرون اليه هذه النظرة المستفهمة ؟ ولماذا يريدون

ان يضحكوا ؟ » وفجأة انفجر احدهم ، وكان لم يلبس بعد جبته وعمته ، بضحكة ثاقبة ، وهو يمد سبابته مشيرا اليه، قائلا « انظروا ... انظروا الشيخ سامي ! » وكاد الجميع ينفجرون مثله ، لولا ان تقدم منه الناظر بسرعة وصفعه على خده صفعة مرنة وهو يقول له « اخرس يا قليل الادب! احترم الجبة والعمة ! »

ومشى هو بخطوة وئيدة لا يدري ما يقول وما يفعل ، ولا يدرك من اسرار الموقف شيئا ، ثم اتجه على مهل الى غرفة النوم ، فاقبل على خزانته يفتح بابها وينظر في المرآة المعلقة عليه ، فيطالعه وجه يعرفه من قديم ، ولكنه مع ذلك جديد عليه . ووجد ان العمة تلائم وجهه فتساءل مرة اخرى : « ما الذي وجدوه في باعثا على الضحك والابتسام ؟» وبرز فجأة في المرآة خلفه وجه صديقه رفيق، وسرعان ما فهم . كان لا يتجاوز ، مع عمته ، صدر صديقه ... واذن ، فهو لم يكن صغيرا في السن ، بقدر ما كان قصيرا في القامة . وشعر بيد رفيق تلامس كتفه ، وسمعه يقول له : « انك شيخ صغير ... ولكنك رائع .. ممتاز ! » والتفت اليه ، فلم يفهم اكان في كلامه عطف ومودة ، ام سخرية ورثاء ؟

*

واذن لهم ناظر المعهد بعد ظهر ذلك اليوم ان ينصرفوا الى منازلهم فيبيتوا فيها ليلتهم ويعودوا في الصباح . وكانت هذه عطلة صغيرة للاحتفال بارتداء الزي الديني .

وخرج من المعهد يحس دنيا جديدة حوله . ولكن تلبد السماء بالغيوم اشعره ببعض كآبة . ومشى خطوات ينتظر قدوم الترام، ولكنه ابطأ، وبدأت قطرات من المطر تتساقط . وحين اقبل الترام ، هم بالعدو خلفه ليدركه وهو سائر ، على عادته . غير انه شعر بثقل الجبة على كتفيه ، والعمة على رأسه ، وذكر ان الرصانة تقتضيه الا يقفز الى الترام قفزا ، فتباطأ خطوه مرة اخرى . وانهمر المطر في تلك اللحظة غزيرا ، فشعر بقطراته تسيل على جبينه ووجنتيه. ولكنه نظر الى جبته فألفاها قد ابتلت لدى الكتفين وعند الذيل . اما عمامته فلم يرها ، غير انه احس بعض الرضى انها وقت رأسه من المطر ..

وبلغ المحطة وفي نيته ان يستقل عندها الترام . ولكنه عاد ينظر الى ثوبه المبتل، فاستشعر الخجل من ان يبدو امام الناس كذلك ، وتابع سيره على قدميه قائلا في نفسه ان البيت قد اصبح قريبا . وهطل وابل من المطر ، فأصابه منه نصيب آخر ، ووقف عند باب المنزل ينفض جبته قبل ان يطرقه .

وكانت امه هي التي فتحت الباب ، فرآها تباغت فتتراجع وهي تتقيه بيدها ، فأدرك انها ظنته غريبا بهذا المظهر الجديد ، ثم ما لبثت ان ارتدت الى الباب وقد اتسعت حدقتاها وصاحت :

ـ انت ؟.. سامي .. حبيبي .. الشيخ سامي ..

ودخل البيت ، فأقبلت عليه تضمه ، ثم تتراجع وتنظر اليه من مسافة قريبة :

ـ لقد اصبحت شيخا اذن يا سامي ؟. لقد انتهى الامر اذن ؟

فلم يجب بكلمة . ورآها تحدق في وجهه ثم تقول بحرارة واهتمام :

ـ ولكن ما هذه الدموع على عينيك ووجنتيك ؟ انت تبكي ؟ لماذا يا حبيبي ؟ اتبكي لانك اصبحت شيخا ؟ لماذا يا ...

وقطع عبارتها صوت عريض انبعث من خلفها يقول :

ـ ما هذا الكلام التافه ؟ وما هذه الاسئلة السخيفة ؟ لماذا لا تفتحين عينيك جيدا لتري ان هذا من ماء المطر ، وليس من الدموع ؟ صدق النبي الكريم : النساء ناقصات عقل ودين ...

ثم التفت اليه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة واخذ يرحب به :

ـ أهلا بالشيخ سامي .. اهلا بالابن البار ..

وراح يشده اليه ، ثم اخذ يلامس جبته برقة وتؤدة ، وتناول عمامته ينفض عنها ما علق بها من ماء ، وما لبث ان اخذه من يده وقاده الى غرفته وهو يقول له :

ـ امسح الماء عن وجهك يا بني ... رضي الله عنك وارضاك .

وحين وقف امام المرآة ، والمنشفة في يده ، رأى باب الغرفة وقد سدته وجوه اخوته وامه ، وتطلع مرة اخرى في المرآة ، ورفع المنشفة الى وجهه ، فلم يدر هو نفسه هل كان يمسح قطرات من المطر سقطت على وجنتيه ، ام دموعا سالت من عينيه ؟ (*)

سهيل ادريس

(*) فصلان آخران من رواية جديدة تصدر قريبا .

للتدريس في الصفوف الثانوية
تقدم

لجنة التأليف المدرسي

● **المطالعة التوجيهية**

وهي سلسلة من اربعة اجزاء في المطالعة والادب . وتشتمل على دروس مختارة من اروع الاداب العالمية ، وفصول في علم النفس والاجتماع والتربية القومية والحضارة العربية .

تبويب موجه ، تحليل فني للدرس ، اسئلة في النحو واللغة والبلاغة والانشاء .

● **التعريف في الادب العربي**

سلسلة من جزأين ، تدرس تاريخ الادب العربي في اسلوب تحليلي مقارن .

تأليف الاستاذ رئيف خوري

● **أعلام الفلسفة العربية**

اول كتاب من نوعه يشتمل على دراسات مفصلة ونصوص مبوبة مشروحة ، ويجعل من الفلسفة العربية مادة سائغة طلية واضحة . تأليف الاستاذين كمال اليازجي وانطون كرم .